قصة قصيرة

الخيار الثالث

ابراهيم العبسي

فوق أرضية لامعة، يغمرها ضوء قوي، راحت مليحة تتلوى، بدا جسدها تحت الغلالة الرقيقة البيضاء مثل جمرة النار، غلت الرغبة في صدر عبد الله، فصاح:

- مليحة!

انخرطت مليحة في بكاء حار، ثم راحت تتدحرج بعيداً وقد انحسرت الغلالة الرقيقة عن جسدها، صعدت الرغبة إلى حلق عبد الله، وهو يحتوي بعينيه اعضاءها العارية وشهق فيما يشبه الاختناق:

- مليحة!

ثم هم بالاندفاع ليلحق بها، غير أن يدا قوية قبضت عليه في عنف، وشدته إلى الوراء، وإذ استدار يحدق خلفه اصطدم رأسه بفوهات بنادق كثيرة، مصوبة إلى جبهته تماماً، صرخ:

- ماذا تفعلون هنا؟

صاح احدهم بما يشبه العواء:

- نحن الذين نسألك.. ماذا تفعل هنا؟

احتوى عبد الله ذهول قاس، وهو يحدق في الوجوه الغريبة، التي اصطفت حوله، كانوا يرتدون ثياباً سوداً ويضعون على رؤوسهم قبعات سوداً. وبدت لحاهم الطويلة مثل أذيال كلاب برية.

قال عبد الله وقد انسرب إلى صدره رعب بارد:

- هذه مليحة زوجتي، وهذه الأرض التي نمارس فوقها حياتنا هي أرضنا، ألسنا أحراراً في أن نفعل ما نشاء؟!

كانت مليحة قد ابتعدت، رآها على البعد مرمية فيما جسدها يهتز بشدة... صرخ:

- ابتعدوا ايها الاوغاد!

وللمرة الثانية هم بالاندفاع، غير أن فوهات البنادق أحاطت برأسه مثل السوار، فجمد في مكانه.

من مكان ما، ظهر الحاج عبد المجيد بعباءته الشفافة ومسدس «البراشوت» حول وسطه.. صاح عبد الله مستنجدا:

- يا عم الحاج عبد المجيد!

راح الحاج عبد المجيد يتقدم نحو الرجال ذوي القبعات. ويصافحهم واحدا، واحدا. بدا الحاج عبد المجيد وكأنه يعرفهم تماما.

عاد عبد الله يصيح:

- يا عم عبد المجيد.. أنا عبد الله ذياب.

وإذ التفت الحاج عبد المجيد نحوه، شهق عبد الله وجعل ينتحب مثل طفل، اقترب الحاج عبد المجيد منه وثمة ابتسامة صفراء ترتسم فوق وجهه.. وهمس:

- انصحك يا عبد الله بالابتعاد عن طريق هؤلاء الرجال!

فتح عبد الله فمه في دهشة، فيما اتسعت فتحتا عينيه:

- ماذا تقول يا عمّ الحاج.. ابتعد! كيف! ومليحة! والأرض!

قهقه الحاج عبد المجيد في صخب، ثم قطب جبينه فجأة وقال في ضيق:

- أما مليحة فلا تخف عليها، سأضمها إلى نسائي، وأما الأرض فقد ابتاعها هؤلاء الرجال.

للحظات ظل فم عبد الله مفتوحاً، وعيناه تجوبان وجه الحاج عبد المجيد، فجأة غشي وجه الحاج عبد المجيد ضباب كثيف لم يلبث ان انقشع عن صورة أخرى، غير صورة الحاج التي يعرفها عبد الله.. إذ طارت الكوفية عن رأسه وطار العقال، وحلت مكانها قبعة سوداء. لم يصدق عبد الله عينيه، اغمضها عدة مرات، وضرب رأسه مرات أخرى، ثم عاد ينقل عينيه بين وجه الحاج، ووجوه الرجال الغرباء.

احتوته دهشة قاسية، وذهول شديد عندما اكتشف أن ملامح وجه الحاج عبد المجيد اتخذت نفس ملامح وجوه الرجال الغرباء، عندئذ هم عبد الله بالاندفاع للمرة الثالثة نحو مليحة، وإذ ركض عدة خطوات، طرزت رأسه زخة كثيفة من الرصاص. فارتمى يتخبط على الأرض، وقد راح الدم يتدفق غزيراً من رأسه. وفيما كان يتلوى وسط بركة الدم، كان الرجال الغرباء ينتشرون فوق مساحة الأرض. ثمة رجل راح يركض نحو مليحة في اندفاع ولهفة- لعله الحاج عبد المجيد- وبدت مليحة

على البعد.. تشد شعرها وتصيح:
- يا عبد الله.. يا عبد الله!

انتفض عبد الله في ذعر، اذ اقتحم سمعه صوت حاد غاضب. اتخذ وضع الجلوس، وراح يدور بعينيه في العتمة الجاثمة حوله. وهجس في أعماقه:
- لا بد انني الآن في العالم الآخر.

وجعل على الفور يتحسس الثقوب التي احدثتها زخة الرصاص في رأسه،وسقط في دهشة مريرة حينما اكتشف ان ليس هناك ثقب في الرأس، فأغمض عينيه، وقبض على رأسه في عنف.
- مالك يا عبد الله؟.

مرة أخرى جاءه الصوت الغاضب، فأفلت يديه من حول رأسه وراح يحلق في العتمة الجاثمة حوله في ذعر، واذ وقعت عيناه على العجوز سالم العبد، وقد تمدد في زاوية الغرفة، داهمته قشعريرة مفاجئة، وأدرك على الفور انه لم يبتعد عن سجن صرفند، فصاح فيما يشبه البكاء:
- لا بد من الهرب من هذا السجن يا عم سالم

وفرقعت في العتمة على الفور ضحكة عالية، اعقبها لهاث ضعيف مضطرب:
- لا أحد يستطيع الهرب من سجن صرفند يا عبد الله وان استطاع فلن يبتعد، اذ لا بد أن يثقب جسده رصاص الحراس.

وانكفأ عبد الله على وجهه، راح يتلوى في قهر، فيما جعل جسده يختلج اختلاجات متلاحقة.

آه من قلة الحيلة، وليل صرفند يا عم سالم!

آه من غدر الرجال وضيعة العمر.. لقد اخذوا مني مليحة يا عم سالم، واستولوا على الأرض.. بعد أن القوا بي في سجن صرفند محكوما بالأشغال الشاقة المؤبدة.. مليحة مهجة القلب وكحلة العين.. كنت غبيا يا عم سالم.. اعترف الآن انني كنت غبيا.. اذ كنت لا أعرف من العالم الذي أعيش فيه غير عيني مليحة والأرض..

كانت مليح والأرض هما عالمي الذي اعيش فيه، وله.. كان الليل لمليحة وللأرض النهار.. ما عداهما لم اكن اعرف شيئاً عما يدور حولي.. اغمضت عيني عن العالم، واكتفيت بها.. مليحة والارض.. اما مليحة، فقد جئت بها من «يافا» دفعت مهراً لها عذاب سنين طويلة من الجوع، والبرد، والجري والسهر والشقاء.. ذات صيف تعرفت إلى مليحة، كنت قاصداً «يافا»، كيما أبيع محصول القمح.. كان مخزن القمح الذي اعتدت ان ابيع له الحبوب غير بعيد عن البحر.. وكان بيت مليحة لصق البحر تماماً.. عندما وقعت عيناي عليها أول مرة، احسست كأن طائراً مرحا حط في صدري.. وجعل يخفق في القلب.. احببتها عندما وقعت عيناي عليها.. وهبتها قلبي منذ تلك اللحظة.. إذ كانت مليحة مثل فرس يا عمّ سالم: وجه مدور، وعينان لا تغادرهما الكحلة، جسد ممتلىء وثديان كبيران يطلان من فتحة الفستان..

لا تشبع العين من النظر إليها.. هي أيضاً احبتني يا عم سالم.. اصبحت تلازم شرفتها من الضحى حتى ما قبل المساء.. هل احدثك عن الحب يا عم سالم!!. كنا نسترق لحظات ما قبل المساء، ونلتقي عند البحر.. بحر يافا.. هل تعرف بحر يافا؟. بحر واسع عريض، وشاطىء رحب.. كنا نلتقي هناك يحتضن واحدنا الآخر بعينيه، ننسى نفسينا.. ننسى البحر والشاطىء، والأمواج.. ننسى العالم، والناس..

قبل المساء.. كانت مليحة تسألني:
- عبد الله، هل حقا تحبني؟..

واصرخ في وجهها.. بطول صوتي اصرخ:
- البحر يشهد اني احبك يا مليحة.

ويتردد صدى صراخي فوق البحر الواسع، والشاطىء الرحب..

ونسيت نفسي في يافا يا عم سالم.. وآليت ان لا أعود إلى البلدة الا ومليحة معي.. يوم عدت بها إلى البلدة.. خرج الناس كلهم لرؤيتها.. رجال ونساء، واطفال، ضربت النساء صدورهن غيرة ودهشة، وشهق الرجال حسدا، واعجاباً، وانطلق الأولاد يغنون لمليحة في الشوارع، كان عرساً هائلاً يا عم سالم.. لم تشهد له البلدة مثيلا. طول سنين الوجع والخوف التي عاشتها، وما زالت تعيشها ولا أكتمك يا عمّ سالم.. فقد ساورني الخوف على مليحة منذ ليلة العرس.. فبلدتنا لا ترحم.. صحيح ان أهلها اناس طيبون، لا يعرفون الغدر، والطعن في الظهر لكن الخوف يظل الهاجس الأكبر في البلدة.. الخوف تراه في كل مكان يا عمّ سالم.. طائر خرافي حطّ وفرخ في كل الزوايا، والمنعطفات.. تراه مرسوماً على الجدران الطباشيرية المهترئة، محفورا في عيون الأطفال، والرجال والنساء، خوف ورثته البلاد من أيام العثمانيين، وتضاعف بعد مجيء الانجليز.. الخوف من اي شيء.. وعلى أي شيء.. الخوف من القحط الذي ظل زائرا ثقيلا طوال سبع سنوات.. الخوف من الأوبئة التي كانت تحصد اعداداً كبيرة من الناس، الخوف من اللصوص، وقطاع الطرق، وزيارات فرسان الانجليز، الخوف من الغرباء الذين يمرون من الطريق، الخوف من الصخور المتجهمة فوق الجبال المحيطة بالبلدة - وأخيراً الخوف من الحاج عبد المجيد، شيخ البلدة، وحاكمها المطلق والذي اذا ما ظهر في مكان ما في البلدة، ارتعدت فرائص الناس في ذلك المكان وراحوا يتسابقون لتقبيل الأرض تحت قدميه، دفعاً لغضبه، واتقاء لسوطه.

أقول بدأ الخوف يساورني على مليحة في هذا الجو الراعب ولكن.. ماذا يفعل فلاح مثلي لا يعرف من العالم الذي يعيش فيه غير بلدته؟ انه لا يملك أن يحلم بمكان آخر يعيش فيه غير الأرض التي فتح عينيه عليها، ونزفت فيها دماؤه، ودموعه ورغم الخوف، كان لا بد أن نبدأ حياتنا: سقيفة متواضعة وسط البلدة، وقطعة ارض صغيرة خارج البلدة.. في البدء كانت الحياة بالنسبة لمليحة قاسية وصعبة، لكنها سرعان ما اعتادت

عليها، وصارت مثل واحدة من نساء البلدة كانت مليحة تظل في السقيفة طوال النهار تغزل الصوف وتصنع صواني القش.. وتنتظرني.. وكنت انا امضي النهار كله في الأرض.. لقد أحببت الأرض يا عم سالم.. احببتها منذ درجت قدماي فوقها.. احببتها رغم وجع الظهر وتشقق اليدين، فالأرض مثل المرأة، تحس معها بعذوبة الحياة، وروعة العطاء، إذا ما اخلصت لها، وتوحدت معها.. كل مساء وحينما كنت اعود إلى السقيفة. كنت اجد مليحة بالباب تنتظرني، وقد كحلت عينيها.. وارتدت فستانا احمر يكشف عن ثدييها.. عندئذ كنت اتفقد التعب، ووجع الظهر فلا اجدهما.. فاحتويها بين ذراعي واهتف:

- مليحة.. انت حبيبتي..

وتفلت مليحة مني، وقد ارتسم غضب طفولي فوق الوجه المدور:

- لكنك، تمضي النهار بعيدا عني..

واقترب منها، وأهمس ضاحكا:

- لا تنسي ان الأرض ايضاً حبيبتي...

وتزعق مليحة، بطول صوتها تزعق:

- أرأيت.. أنت لا تحبني.. أنت تحب الأرض فقط..

وأهتف:

- أنت حبيبتي.. والأرض ايضا حبيبتي.. لك الليل، ولها النهار.. هل تغارين يا مليحة؟.

وتضحك مليحة، وتقترب مني، تلصق صدرها بصدري، فتعبق من ثدييها رائحة أنثوية يرتجف لها جسدي، ولا أكاد أغمض عيني، ملتذا بالرائحة المثيرة، حتى ينتصب الخوف في صدري مثل رمح مسموم. ذلك أنني أخاف على مليحة يا عم سالم.. أخاف عليها من الخوف المعشش في كل زاوية في البلدة.. أخاف ان اصحو ذات يوم ولا اجدها نائمة لصقي.. اخاف ان اعود من الأرض ولا أجدها في السقيفة.. أخاف عليها من العيون الفارغة.. التي لا ترتفع عنها إذا ما مرت في الشارع.. ولعل اكثر ما كان يبعث في نفسي الخوف على مليحة، هو الحاج عبد المجيد.. شيخ البلدة.. فيوم وقعت عيناه عليها حينما جئت بها من يافا جحظت عيناه.. وراح يلهث مثل كلب، وثمة سائل لزج جعل يسيل من فمه المفتوح.. آه يا عم سالم.. هل حدثتك عن الحاج عبد المجيد!!. هو شيخ البلدة وحاكمها.. هو القاضي، والجلاد يا عم سالم، هو النائحة والقاتل.. فتحت عيني على الحياة، على سوطه الذي لا يفارق يده، ومسدس «البراشوت» الذي لا يفارق وسطه.. يضرب وينفي ويقتل.. ويأخذ كل ما يرغب فيه، لا أحد في البلدة يفكر بالخروج على طاعته.. أو عصيان أمر له أو تجاهل رغبة.. في كل عرس له قمباز، وفي كل مأتم له ذبيحة.. وفي مواسم الحصاد لا بد من حصة الحاج.. له ديوان يجتمع فيه الرجال كل ليلة، يجلس هو في الواجهة، والرجال يجلسون عن جانبيه.. لا أحد يجرؤ على رفع رأسه في حضرته، إذ لا بد أن تكون عيون الرجال مغروسة في الأرض.. يحيط نفسه بمجموعة من القتلة واللصوص يطلقهم في هجعة الليل يروعون الناس ويلقون الرعب في نفوسهم يسرقون الماشية، وشوالات القمح، ويضربون كل صاحب رأس.. فوق هذا لم يكن الحاج يدع امرأة جميلة الا وضمها إلى نسائه.. حتى تجاوز عدد نسائه شريعة الله... تراه يحدق في وجوه النساء، ومؤخراتهن أمام عيون الرجال، كان لا يقيم وزناً لأحد في البلدة، وكثيراً ما كان الناس يروون الحكايات الكثيرة عن مغامراته الليلية، واقتحامه بيوت الرجال الغائبين واغتصاب نسائهم، حتى بلغ به الأمر أن يعلن في الديوان، وعلى أسماع الرجال:

- كل الأولاد في البلدة أولادي- ولن يعصى لي ولد أمرا.

كان الحاج عبد المجيد هو الحاكم المطلق والقاضي المطلق، والمالك المطلق لكل شيء في البلدة.

ذات ليلة دعاني الحاج عبد المجيد للسهر مع الرجال في الديوان، لم أكن قد وطئت الديوان منذ جئت بمليحة،ولم أكد أسلم على الرجال، واتخذ مكاني بينهم، حتى أعلن الحاج:

- عبد الله ذياب ولدي، وحبيبي..

ثم إنه صاح مداعبا:

- لقد غلبتني يا ملعون..

قلت:

- استغفر الله يا عمّ الحاج.. بماذا غلبتك!

قهقه في صخب وقال:

- غلبتني بمليحة..

كان الديوان مكتظاً بالرجال، فأحسست كأن يدا امتدت إليّ وانتزعت عني ملابسي، وبقيت عاريا.. اشتعلت نار حامية في قلبي، وانتصب الخوف في صدري وقلت باضطراب:

- أنت يا عمّ الحاج لديك اربع نساء، غير المطلقات، أما أنا فليس عندي سوى مليحة.

وقهقه الحاج مرة أخرى، رج الديوان بقهقهته ثم إنه مرّ بيده على شاربيه، وصرّ عينيه وراح يهمهم في رغبة دفينة.

تلك الليلة لم أنم يا عمّ سالم. ظللت أتقلب لصق مليحة، وهمّ ثقيل يجثم على قلبي، إذ ظلّت صورة الحاج تنقر رأسي بالحاح.. فالحاج اذا رغب في شيء لا بد ان يحصل عليه، وفكرت في تلك الليلة ان أضع حدا لمروق الحاج وطغيانه، وأخلص البلدة من شروره.. لكن.. ماذا يفعل رجل وحيد لا يملك من العالم غير عشاء يومه أمام شيخ يحيط نفسه بالقتلة واللصوص، وفرسان الانجليز.. هو الشيخ مالك كل شيء، وأنا مجرد رجل ليس لي ثمة غير مليحة.. هو الصخرة وأنا الرأس، هو البندقية وأنا الصدر العاري.. وهل يقاتل الصدر العاري البندقية يا عمّ سالم؟

وخطر لي أن اهرب بمليحة.. وأعود بها إلى يافا ولكن.. ماذا يفعل فلاح مثلي في يافا لم يبتعد في حياته أسبوعاً واحداً عن الأرض التي عشقها، و«جبل» ترابها بدمه، وعرقه،

ودموعه!! ماذا يفعل؟
انه لا بد سيموت وجعاً، وشوقاً، واحتراقاً، وذلاً.. ولما كنت عاجزاً عن وضع حد لمروق الحاج وطغيانه، ورافضاً الهرب ومغادرة البلدة والأرض.. فقد ظللت ملازماً لمليحة في السقيفة.. هجرت الأرض والناس، والنهار، وظللت.. أحرسها من الحاج ورجاله.. كنت امضي الليل ساهراً قرب النافذة.. التقط بأذني خبطات أقدام المارة، ولا يكاد الفجر يطلع حتى اكون قد سقطت على الأرض اعياء ووجعا.. حتى ذلك الوقت لم أكن قد بحت لمليحة بمخاوفي، فمليحة هي الفرح.. ولا أريد أن اقتل الفرح بالخوف..

وتسألني مليحة:

- مالك يا عبد الله.. لقد تغيرت.. ألم تعد تحبني!!
- البحر يشهد اني أحبك يا مليحة.. لكنني أخاف عليك.
- ممّ تخاف عليّ!!
- أخاف عليك من الحاج عبد المجيد..
- ولكن غير معقول أن تهجر الأرض يا عبد الله.. فسوف يقتلنا الجوع ان بقيت ملازماً للسقيفة، ثم.. لا داعي للخوف، فأنا أحبك، ولن أقبل كل رجال العالم بدلاً منك..

ويسقط رأسي فوق صدري، وأصيح:

- أعرف انك تحبينني يا مليحة.. لكن الحاج عبد المجيد لا يعرف الحب

وتصرخ مليحة:

- ولكن ماذا نفعل يا عبد الله!!
- نرحل يا مليحة من البلدة، ونقيم لنا غرفة وسط الأرض خارج البلدة.

كنت قد بدأت اهجس بالرحيل، نعم الرحيل فلماذا لا نرحل من البلدة ونقيم غرفة وسط الأرض، فمن جهة ابعد مليحة عن عيني الحاج عبد المجيد.. ومن جهة أخرى تظل عيناي عليها في النهار، والليل، ولم أتردد يا عمّ سالم. إذ بدأت أصحو مع الفجر.. اقتلع الحجارة من الجبال البعيدة وأحملها على ظهري، واجعلها في اكوام وسط الأرض.

وشاع في البلدة:

- عبد الله ذياب يقيم بيتاً خارج البلدة..

وجن جنون الحاج عبد المجيد.. فجاءني ذات صباح ومعه رجاله - القتلة واللصوص.

صاح في غضب:

- ماذا تفعل يا عبد الله!!

قلت:

- أقيم غرفة فوق أرضي يا عمّ الحاج.

ضحك الحاج في غضب وصحت فجأة وصاح:

- اية أرض هذه التي تتحدث عنها؟!
- ارضي يا عمّ الحاج.. اليست قطعة الأرض هذه هي ارضي ورثتها عن جدي الذي ورثها عن سابع جد؟

- لماذا تقول إنك ورثت العمل فيها عن سابع جد، ابوك وجدك، وأجدادك كلهم، كانوا «حراثين» في هذه الأرض، ليس لهم غير اللقمة والسروال.

لم أصدق ما سمعت، رحت اتطلع في وجه الشيخ بدهشة وذهول، وقد صعقتني المفاجأة

- ماذا تقول يا عمي الحاج!! لا بد أنك غاضب عليّ! سأدفع لك ما تريد آخر الموسم..

صاح الحاج:

- لا أريد أن أراك في هذه الأرض بعد الآن، فأنت فلاح عاق.

آه ماذا أقول لك يا عم سالم، اعترتني قشعريرة مفاجئة وبدأ تيار صاخب يعبر جسدي في موجات متلاحقة، وصرخت بطول صوتي:

- هذه ارضي، ولن ابتعد عنها، ان رائحتي ورائحة ابي واجدادي مبثوثة في كل ذرة منها، لن أتخلى عنها، أو أموت دونها.

ولكن ماذا ينفع صوتي أمام البنادق.. ماذا يفعل رجل وحيد أمام عدد لا يحصى من القتلة واللصوص.. كانوا هم الأقوى، وأنا الضعيف، وكانوا هم الصخرة وأنا الرأس، كانوا هم البندقية، وأنا الصدر العاري، وهل يملك الصدر العاري أن يواجه البندقية؟ البندقية لا بد لمواجهتها من بندقية يا عمّ سالم، والصخرة لا بد لمناطحتها من صخرة، أليس كذلك يا عم سالم!!

وأعادوني إلى السقيفة في قاع البلدة، وعادت مليحة معي مكسورة النفس، والقلب، لكنني وحتى ذلك الوقت، كنت اهجس في أعماقي ان الحاج عبد المجيد، لا بد أن يتراجع، ويعيدني إلى أرضي، إذ انني لا أقصر في حقه مطلقاً، كنت اخدمه بعيني، واعطيه حتى حطتي ومؤونة بيتي لكنني كنت غبياً يا عم سالم.. الم أقل لك منذ البداية انني كنت غبياً، إذ كان الحاج ماضياً في كيده لي.. جاءني احد رجاله بعدئذ إلى السقيفة ذات ليل، وهمس في أذني:

- ان تخليت للحاج عن مليحة، فسوف يعيد لك الأرض..

أرأيت يا عمّ سالم.. لقد صحّت مخاوفي، انه يريد مليحة، يريدني ان أتنازل عنها، وهو الشيخ الذي يملك اربع نساء غير المطلقات، ويملك أن يأتي بمثلهن، وأنا الرجل الفقير الذي عشق مليحة حتى الجنون، ودفع مهراً لها عذاب سنوات طويلة، أرأيت يا عمّ سالم.. يساومني على مليحة لقاء الأرض، وهو لا يملك الأرض يا عمّ سالم.. هل سمعت يا عمّ سالم بمثل هذه القصة؟ لا أعتقد. فإما الأرض، واما مليحة، أرأيت هذا الخيار المستحيل، أرأيت هذا الخيار الصعب!!

فالأرض ومليحة هما عالمي الذي أعيش فيه وله.. انهما الحبل السري الذي يشدني إلى هذا العالم، واني على استعداد لأن أتخلى عن نفسي، ولا أتخلى عنها، فأنا فلاح يا عمّ سالم، والفلاح يمكن أن يتخلى عن كل شيء عدا الأرض والزوجة وعبثاً يا عم

رحت ادق ابواب البيوت داخل البلدة وخارجها «أطنب» على الناس والشيوخ في القرى المجاورة، كيا يعيد لي الحاج أرضي، عبثاً يا عمّ سالم، إذ كان الحاج ماضياً في طغيانه ومروقه.. بصورة لم تعرف بلدتنا مثيلاً لها.. فالحاج لم يعتد أن يهزم أمام رجل فقير مثلي، كانت الأحداث تتلاحق بسرعة عجيبة، كدت أفقد معها عقلي.. وحدث ما لم اكن أتوقعه، بل حدث ما لم يكن أحد في البلدة كلها يتوقعه، وانتشرت اشاعة في البلدة تقول:

- ان الحاج عبد المجيد ينوي بيع أرض عبد الله ذياب لليهود.

في البدء لم أصدق، إذ يمكن أن يفعل الحاج أي شيء، لكنه لا يبيع الأرض لليهود. كان دائماً يتحدث عن اليهود بحقد، وغضب، وكان يفاخر دائماً بأنه قدم البنادق للثوار عام ١٩٣٦، وأنه اشترك بنفسه في الثورة ضد اليهود، والانجليز، لكن الاشاعة كانت صحيحة يا عمّ سالم، إذ جاء رجال غرباء يرتدون ثياباً سوداء، ويضعون على رؤوسهم قبعات طويلة، وراحوا يعاينون الأرض.

آه يا عم سالم، ماذا أقول لك، فقدت العقل، والصبر، وخرجت إلى الشوارع اصرخ بطول صوتي، وكانت مليحة معي تشد شعرها وتصرخ، لكن أحدا لم يسمع الصوت، ووجدت نفسي وحيداً يا عم سالم في بلدة يقتلها الخوف، ولم يبق أمامي غير.. ثلاثة خيارات لا رابع لها - فاما أن استسلم واهرب بمليحة، وأدع الحاج يبيع الأرض لليهود، واما أن أتنازل عن مليحة للحاج، عندئذ يعيد لي الأرض، واما البندقية يا عمّ سالم. البندقية التي تنطق فوهتها بالحق، البندقية التي تعيد الأرض، وتبعد الخوف، وتحمي عيني مليحة، ولم تكن البندقية بعيدة، جئت بها من «بئر السبع»، بعد أن دفعت ثمناً لها قلادة ذهب كنت اشتريتها لمليحة من «يافا».. لحظة تحسست البندقية يا عمّ سالم، أحسست أنني يمكن أن أقف في وجه كل قوى الشرّ في العالم، أحسست أنني اتحول من رجل فقير ضعيف، إلى جبل، أكثر من هذا بحثت عن الخوف في الصدر فلم أجده..

وأعلنت في البلدة، أنني سأقتل كل من يطأ أرضي، ومع كل فجر بدأت ارقب كل حركة حول الأرض، ويدي على الزناد. كان الناس يهتفون لي من النوافذ وسقوف الأبواب.. كانت قلوبهم معي يا عمّ سالم، لكن ايديهم كانت مشلولة ومربوطة إلى جنوبهم.. ماذا تنفع القلوب في زمن البنادق، وفرسان الانجليز يا عم سالم..!!ماذا تنفع القلوب في زمن القهر، والظلم والغدر، والاستلاب، والطغيان!!

آه يا عم سالم.. كنت وحيداً في بلدة مذعورة.. وكان الحاج وحوله اللصوص والقتلة وفرسان الانجليز أعدائي.. كنت رجلاً، وكانوا كثيرين، كنت بندقية، وكانوا غابة من البنادق. كنت اسهر طوال الليل والنهار، ويتناوبون هم الحراسة - القتلة واللصوص وفرسان الانجليز، كان معي بضع طلقات من الرصاص ومعهم صناديق ذخيرة، آه يا عمّ سالم، يوم القوا عليّ القبض بعد معركة قصيرة، نفد مني الرصاص خلالها، كنت اتمنى لو اني لقيت حتفي.. إذ انك لا تستطيع ان تخمن مدى احساسي بالقهر والذل والهزيمة ذلك اليوم، لقد فقدت كل شيء، فقدت الأرض ومليحة، وفقدت نفسي.. واقتادوني إلى سجن صرفند يا عمّ سالم، محكوماً بالأشغال الشاقة المؤبدة. كان الحاج هو الأقوى يا عمّ سالم، وكنت أنا الضعيف، هزمني الحاج، باع ارضي لليهود، وأخذ مني مليحة مليحة مهجة القلب وكحلة العينين، آه يا عمّ سالم، يحترق قلبي كل ليلة، حينما تخطر ببالي مليحة، افقد عقلي حينما تخطر ببالي صورتها وهي تشد شعرها يوم القوا عليّ القبض.. طوال الخمسة اعوام التي امضيتها هنا في سجن صرفند لم تغب عني صورتها ليلة واحدة، اتراها رضيت بالحاج بدلاً عني؟ أم أنها عادت إلى يافا؟ أم انها ضاعت في زحمة الزمن والحياة؟

* * *

كان الليل قد انتصف حينما صمت عبد الله ذياب وراح يتلوى فوق البطانية في قهر وتوجع، وكان المطر في الخارج قد بدأ يتساقط غزيراً، أما العجوز سالم العبد، فقد استلقى على ظهره فيما ارتفع صوته بموال عتابا حزين راح صداه يتردد عبر صمت الليل..

صاح عبد الله ذياب... فيما يشبه النواح:

- يا عمّ سالم، لا بد من الهرب من سجن صرفند.

* * *

مع الفجر، كان سجناء «صرفند» ينتشرون فوق بقعة ارض صخرية، وقد ضرب الحراس الانجليز حولهم نطاقاً محكماً

اقترب عبد الله ذياب من العجوز سالم العبد وهمس:

- هذا الفجر ملائم للهرب يا عمّ سالم..

كان الفجر رمادياً، مغبشاً، وكان المطر قد بدأ يتساقط على شكل رذاذ خفيف، لم يلبث أن اشتد.. وكانت أصوات انفجارات الصخور، لا تنفك ترتفع في تلك البقعة الخالية.

همس العجوز سالم في اذن عبد الله:

- ارجع إلى عقلك يا عبد الله.. فثمة رجال كثيرون حاولوا الهرب لكن رصاص الحراس كان اسرع منهم.

أضاف عبد الله وهو يدور بعينيه في المكان:

- وثمة رجال أيضاً ماتوا بفعل المتفجرات، أو القهر في الغرف الرطبة.

* * *

حينما طلعت الشمس، كان عبد الله ذياب قد خلف «صرفند» وراء ظهره، وراح يركض عبر أرض خالية موحلة وليس ثمة في اعماقه غير هتاف حار، جعل يتعاظم ويصعد إلى شفتيه:

- البندقية.

عمان/ الاردن